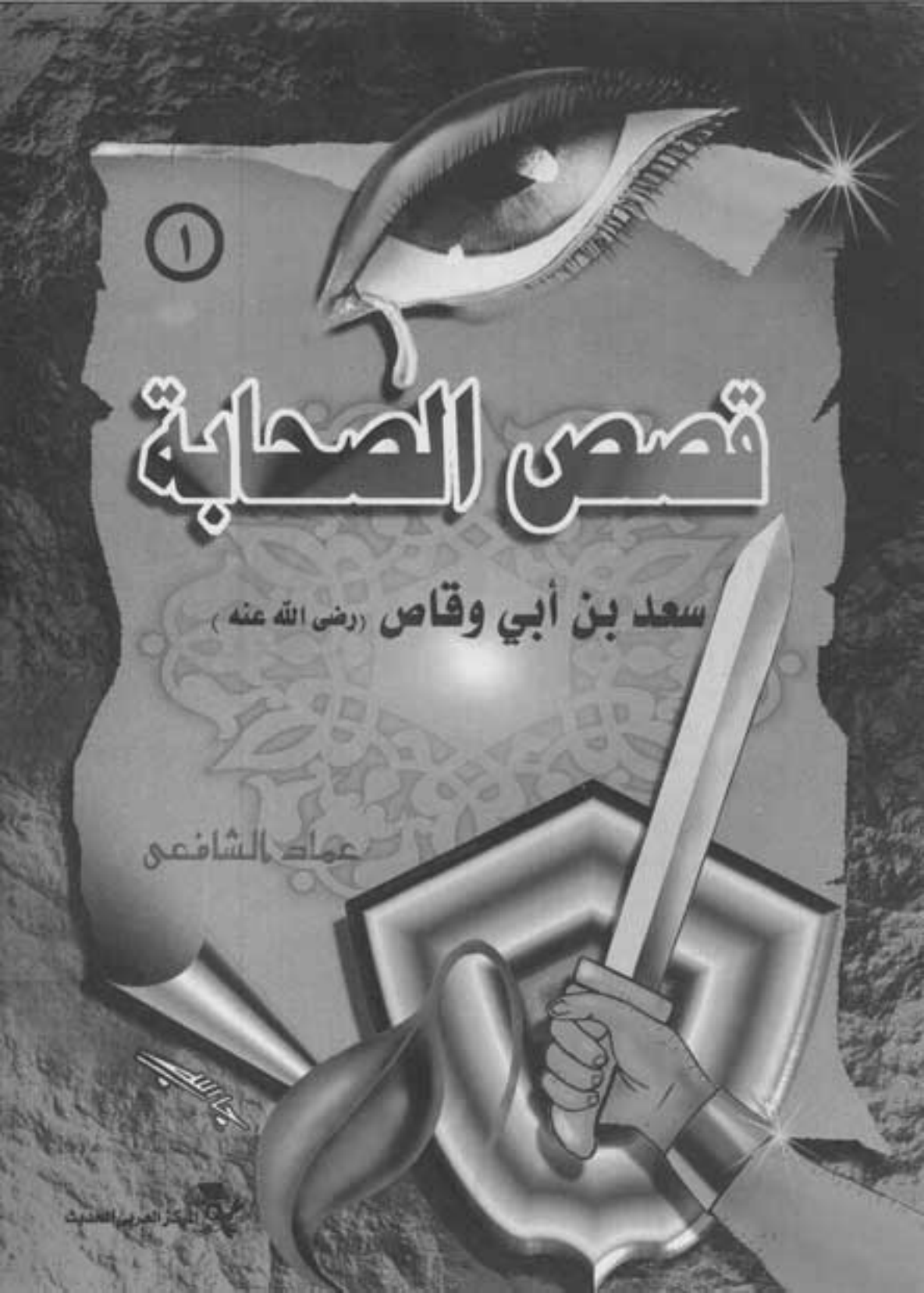

١
قصص الصحابة
سعد بن أبي وقاص (رضى الله عنه)
عماد الشافعي

سعد بن أبي وقاص

كانَ الشَّابُ فى دُكانه نَشيطاً . . يَبْرى السِّهامَ، ويَصْنعُ الدُّروعَ، ويُصلحُ الأقواسَ، ويُرتِّبُ بعناية أدوات الحَرْب. وكانتْ تُسيطرُ عليه من حين لآخرَ حَيْرةٌ وطَيْرةٌ، رُبَّما كانَ سَببها تلْكَ الرُّؤيةُ التى رآها فى نَومه ليلةَ أمسِ.

فى هذه الساعة مرَّ عليه أبو بكر الصَّديق، فحيَّاهُ وراحَ يسأله عن أحواله فى التِّجارة.

قالَ الشَّابُ ويُدْعى سَعْد بن أبى وقاص: أحْوالُ التِّجارة بخيرٍ غَيرَ أنى فى حَيْرةٍ وقلقٍ!

قالَ أبو بكر: ولِمَ؟!

قال سعدٌ: رُؤيا رأيتُها بالأمْس، رأيتُ أنّنى أسيرُ مُتَعثِّراً فى طريق وَعْرٍ مُعْتمٍ، ورُحتُ أتلفتُ حَوْلى باحثاً عن طريق سَوىٍّ مُضاء، وكُنتُ أستغيثُ وأصرخُ كأنّى أختَنقُ، وإذا بالقَمرِ يُشرقُ فجأةً. فصحوتُ من نَوْمى.

تبسَّمَ أبو بكرِ الصَّديق ضَاحكاً وقالَ: أبْشر يا صَديقى إنها رُؤْيا خَيْرٍ.

سأل سعدُ: أصْدقنى القولَ ما تأويلُها؟.

كانَ أبو بكرِ الصِّديق قد آمَنَ بمحمد رَسُولاً من عند الله، وكانتْ الدعوة الإسلامية فى مهدها، والنَّبى يدعو إليها سِرّاً أصْدقاءه وعشيرتُه.

قال أبو بكر لصاحبه: إن تَأويلَها يا صَاحبى أنَّكَ تَسيرُ فى متَاهات الجَاهلية، وهى مُظْلمةٌ ومُلْتويةٌ، فبينما أنْتَ كذلكَ إذْ طَلَع القَمرُ وأنارَ الكَونَ بنورِ النُّبوة.

يا صَديقى لَعلَّكَ سَمعتَ عن مُحمدِ بن عبد الله.

قالَ سعدُ: تَعْنى الصَّادقَ الأمينَ؟!

أبو بكر: نَعْم.. إنهُ نبىٌ مُرسَلٌ من الله إلى النَّاسِ ليُؤمنوا بالله وَحْده لا شريكَ له، وإلى تَرْك عبادة الأصْنام، لَقد بُعث فينا ليُخْرجنا يا صَاحبى من الظُّلمات إلى النُّور، ولَقَد آمنتُ به. إنَّه دينٌ جَديدٌ يَدْعوُ إلى الرَّحمة والعَدْل وإلى مكَارمِ الأخْلاق.

قال سَعدُ: والله لَقد أسْعدتَنى بهذه البُشْرى.

وأغلَقَ سَعدُ دُكانهُ، ومَضَى أبو بكر بصَاحبه إلى رَسُول الله ﷺ ليُعْلن إسلاَمُه فى دارِ الأرْقم بن أبى الأرْقم، ويَسْتمع إلى كَلامِ الله «القُرآن».

آمنَ سعدُ بن أبى وَقَّاص آنئذ وكانَ عُمْره سَبعةَ عشرَ عاماً، ووصلَ الخَبرُ إلى أُمه فَثَارتْ وغَضبتْ وأقَسمت ألا تَذُوقَ الطَّعامَ أو الشَّرابَ حتى يَرْجعَ عن دينه إلى دين آبائه وأجْداده. وكان سَعْدُ باراً بوالديه رَحيماً بأمه، وكان يُحبُّها حُبّاً كثيراً. فَحزنَ لحزنها وراحَ يُلاطفُها ويُرغبها فى دين مُحمد، وهى لا تسمعُ له وتُشيحُ بوجهها عنه.

وتُمرُّ أيامٌ وسَعْد يَجْمعُ فى نفسه مَشاعَر شتَّى، بين فرحته بالدِّين الجديد وجُلُوسه بين يَدى النبِّى وأصحابه، وبَيْن هَمِّه وحُزْنه علىَ ثورة أمه وغَضبها عليه وصَدِّها عنه.

دَخَل سَعدُ على أمه ذاتَ صباح يسأل عن حَالها، فأشاحَتْ عنهُ ولم تُكَلِّمه، فقالَ لها مُتودَّداً: يا أمى إن دينَ مُحمد يدعو إلى عبادة الله وَحْدهُ، ويدعو إلى المُساواة والعَدْل وإلى مكَارمِ الأخلاق.. يا أُمى خيرُ لك أن تُؤمنى بالدِّين الجديد.

فتَثُور الأُم برغم ضَعْفها وتصيحُ: أقسمتُ ألا أذُوقَ طَعاماً ولا شَرَاباً حتى تَرْجعَ إلى دين آبائكَ وأجْدادكَ.

فيردُ سعدُ مُشْفقاً عليها: يا أُمى كُفِّى عمَّا أنتِ فيه حتى لا تهلكين أو تَمُوتينَ.

فتقولُ أُمهُ: سَأظَلّ هكذا حتى أمُوتَ حُزْناً ويُعيركَ النَّاسُ بى ويقولون هَذا سَعْد قاتلُ أمهُ!

ولم يُفْلح سَعْد فى إرضاءِ أُمّهِ بسبب كِبْريائِها وعِنادِها فصاحَ فيها غاضباً:

- تَعْلمينَ يا أُمى لو كَانتْ لَكِ مائةُ نفس، فَخرجتْ نَفْساً نَفْساً ما تركْتُ دينى، فكلى إن شئْتِ أو لا تأكلى. وتَركَها وانْصرفَ.

وذَهَب سَعْدُ مُسْرِعاً إلى رسول الله ﷺ وقَصَّ عليه ما حدثَ له مع أُمه، فحزنَ النَّبىُ ولم يَجدْ ما يقُولُه لسعد. حتى نَزل الوَحى على النَّبى بقرآن: «بقرآن: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقال النبىُ له: يا سعدُ كُنْ باراً بأمكَ واصْبر عليها.» فقال النبىُ له: يا سعدُ كُنْ باراً بأمكَ واصْبر عليها.

كانَ سعدُ بن أبى وَقَّاصٍ تاجراً للسِّهام وللسِّلاح، وكان شاباً فَتياً قوياً، وكان بطبيعة عمله يتدربُ على الرَّمى، وكان قَريباً من النبى ﷺ، وعندما اشْتدَّ إيذاءُ المشركينَ للمسلمينَ هاجرَ بعضُهم إلى الحبشة، لكنَّ سَعْداً ظَلَّ بجوارِ النَّبى ولم يُهاجر.

وهَاجَر سعدُ إلى المدينة قَبْل هجرة النَّبى لها، وكانَ هو أولُ من رمَى بسهمٍ فى سَبيل الله عندما أرسلَهُ النَّبىُ مع نفرٍ من أصَحْابه واشْتركَ سعدُ فى غزوة بَدْر، وقاتلَ المُشركين بسيفه وسهامه بشجاعة لا مَثيلَ لها حتى أثْختهُ الجِراحُ، ولما أنتهتْ المعركةُ خلعَ ثِيابَهُ التى

ملأتها الدِّماءُ وطَواها ليومِ لقاءِ ربِّه. ثُمَّ راحَ يُضَمدُ جِراحهُ ويَحمدُ الله على نِعْمةِ الإيمانِ.

وفى غزوةِ أُحدٍ نَزلَ مُعْظمُ الرُّماةُ من فَوقِ الجبلِ عندما رأَوا فرارَ المُشركينَ وراحوا يَجْمعون الغَنائمَ، ولَّما رأى المُشركون ذلكَ التفُّوا بقيادةِ خالدِ بن الوليد ـ وكان حينذاكَ مُشْركاً ـ وراحُوا يُصوبونَ سهامَهمُ إلى المُسلمين، وأنقَلبَ بسرعةِ النَّصرُ إلى هَزيمةٍ، وتشتتَ المُسلمون وفرَّ بعضهُم، وأحاطَ بعضُهم النَّبىَ يُدافعون عنه. وكان سَعدُ بجوار النبى يَرْمى بسهامه المُشركينَ بمهارة، والنبىُ ﷺ يَرى سِهامَ سَعدٍ تُصيبُ المشركينَ فيقولُ له: إرْمِ سَعدُ فأنتَ مُوفَقُ، إرمِ فِداكَ أبى وأمى.

وانتهتْ المعركةُ لصالحِ المشركينَ، وكان سعدُ بن أبى وقاصٍ فيها صَامداً مع النبى وبعضِ الصَّحابة.

وظَلَّ سعُد بن أبى وقَاصٍ على شَجاعته ومَحبَّته لرسول الله، ورأى النَّبىُ منه إخلاصاً ووفاءً فدعا لهُ: «اللهمَّ سدِّدْ رَميتهُ وأجَبْ دَعْوته» وكان سعدُ يعملُ بدأبٍ حتى بَاركَ اللهُ له فى رِزْقهِ وأصْبحَ مُوسراً وكان يجودُ بمالهِ.

***

عَاشَ سعدُ بن أبى وقاص مُخلصاً لله ولرسوله ومُدافعاً عن الإسلام، وشَهدَ الغزوات كلها مع رسُول الله. ووقفَ مع الخليفة أبو بكر الصدِّيق يُحاربُ المُرتدينَ ويخوضَ المعاركَ لتثبيت دَولة الإسلام.

وفى تلكَ الأثناء كانتْ الفُتوحاتُ الإسلاميةُ تمتدُ فى العراق والشَّام لمجابهة الفُرس والرُوم ونَشْر الإسلام فى البلاد، وفى جَزيرة العَرب. وعندما كانَ عُمر بن الخطاب أميراً للمؤمنين، كانتْ الدولةُ الإسلاميةُ تزدادُ قُوةَ وتزدادُ اتساعاً. وَولىَ امبراطوريةُ الفُرس قائدٌ شجاعٌ يُدعى «يَزْدَجرد»، دَفعتُه الحَمّية والغَيْره على بلاده إلى صَدِّ هجمات المُسلمينَ، وألّهبَ شاعرَ قُواده حَماساً للثَّأر من العَرب وطردهم من بلاده وَغْزو الحجاز أيضاً.

وبلغَ أميرُ المؤمنينَ عُمر بن الخطاب ذلكَ، ورأى خُطورةَ المُوقف وشاوَر أصْحابهُ فرأوا ضَرورةَ تدعيم جَيْش المُسلمين هُناكَ ومواصلة الفَتْح. وكان لابُّد من جَمّعِ المُحاربين من كل ناحية لتكوين جيش قوىٍّ.

وبَعْدَ أيام انطلَق جَيشُ المُسلمينَ من المدينة بقيادة سَعَد بن أبى وقاص وكانوا ثلاثين ألف مُقاتل مُدربينَ تَدّريباً عالياً. وراحَ أميرُ المؤمنينَ عُمر بن الخطاب يُوَدِّعُ الجيشَ ويُوصى قائدهُ:

- «يا سَعدُ، لا يَغُرنَّكَ من الله أن قيلَ خالُ رسول الله وصَاحبهُ فإن اللهَ ليس بينهُ وبين أحد نَسبٌ إلا بطَاعته. عليكَ بالصَّبر واليقظة واكتبْ إلىَّ بجميعِ أحوالكُم، وتوكَّلْ على اللهِ، وما النَّصرُ إلا من عندِ الله»

وَصلَ سعدُ بالجنود إلى العراق، وتقدَّمَ ناحيةَ فارس، وكانَ يَزدْجرد امبراطُورُ الفُرْسِ قد جَمعَ جَيْشاً هائلاً أكثر من مائة وعشرين ألف مقاتل ومزود بالخيول والفيلة المدربين على القتال، وجَعلَ لقيادته رُستم بن هُرْمز أشْهر وأخطرُ قُواده. وكَتب سَعدُ إلى عُمر بن الخطاب ليُطلعهُ على أحوال الفُرسِ ويستشيرهُ فى الأمرِ، وردَّ عليه عُمر بالتوجه إلى القادسية فإنها بابُ فارس.

وطلبَ «رستَّم» المفاوضةَ مع قائد جيشِ المُسلمينَ، فأرسلَ إليه سعدُ «ربْعىَّ بن عامرٍ» ليعرضَ عليه الإسلامَ.

دخلَ ربْعىٌّ بثيابه البَسيطة ونَعلْه الرَّخيص على قائد جَيْش الفُرس، وهو يحملُ بين جَوانحه قُوةَ الإيمان وعَّزةَ الإسلام. وتعجَّبَ رُستم وصاحَ فى الجُندى: ما الذى جاءَ بكُم إلى بلادنا؟

قال ربْعىٌّ وهو يَشدُّ على حَربته: إن الله اختارنا ليُخرج بنا من شَاء من عبادةِ العبادِ إلى عبادة الله، ومن ضيق الدُّنيا إلى سعتها، ومن جورِ

الُحكامِ إلى عَدْلِ الإسلامِ، وقد أرسلَ رسولَنا ﷺ بالحقِ إلى الناسِ كَافةً. ولكم أن تَختاروا واحدةً من ثلاث: إمَّا الإسلامُ، ويكونُ لكم مالنَا وعليكمُ ما علَينا، وإما الجزْيةُ، وإلا فالحربُ!

قال رُسْتم: هَلْ لكم أن تُؤخروا هذا الأمرَ حتى نَنظرُ فيه.

قال ربعىُ: نُمهلكَ ثلاثةَ أيامٍ، لتختارَ أىَّ الثلاث.

وشاورَ رُستم أصحابهُ فى مُصالحة العَرَبِ فلم يَسْتجيبوا. وكان رُستم يتردَّدُ بين الإقدامِ على الحربِ، والتَّفاوض مع المُسلمين. لأنه رأى فى كلامِ المُتفاوضين عزيمةً لا تَلينُ وقوةً لا تُردُّ تُؤكدها معاركُهم فى الشامِ مع الرُّومِ.

وكان سعدُ بن أبى وقاصٍ يُرسلُ بعضَ جنوده إلى مُعسكر الفُرس خُفْيةً ليقفوا على حالةِ الجَيْش ويأتوهُ بخبر القوم.

وَقفَ سعدُ يومَ معركةِ القادسيةِ خطيباً فى جيش المُسلمين يَحثُّهم على الجهادِ فى سبيلِ الله ويملأُ قُلوبهم عَزْماً، فصاحَ:

«بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾. ثم صلَّى بالجيش صلاةَ الظُهرِ وردَّدَ: اللهُ أكبر أربعاً، وردَد الجيشُ وراءهُ. ثم هَتفَ شاهراً سَيْفه: هيَّا تقدمُوا على بركةِ الله. فتقدَّمَ جيشُ المسلمينَ يُثيرُ الغُبارَ ويحملُ

الدَّمارَ، ويتساقطُ جُنود الفُرس تحت ضَربات السُّيوف وأسنَّة الرِّماح، ويشتدُ القتالُ وسعدُ يُوجه الجنودَ وهم يتعقبون الفيلَ الأبيضَ، ويُقْتلُ رُسْتم قائدَ الفُرس، ويَفرُّ الجنودُ الفرس تاركينَ أرضَ المعركة ويَتعَقبهم بعضُ الفرسان المُسلمين.

ويتصرُ المُسلمونَ فى معركة القَادسية ويُصلون صلاةَ الفَتْح ثمان ركعات. ويُقيمُ سعدُ بالقادسية شَهرْين يُريح فيها جَيْشه ويكتبُ إلى أمير المؤُمنينَ يخبرهُ بالفتح. وكان عُمر بن الخطاب فى المدينة حَائراً قلقاً يَخرجَ كلَّ حين إلى طريق العراق يَرمْى ببصره إلى الأُفق يتحَّرقُ شَوْقاً لرؤية البَريد، أو لعلهُ يَرى راكباً يُخبره بأحوال المُسلمينَ فى القادسية.

وبينما أميرُ المؤُمنينَ كذلكَ، جاءهُ البَشيرُ بالفتح والنَّصر، فحمدَ اللهَ تعالى وقرأ على المُسلمين فى المدينة رسالةَ سعد.

وكَتبَ اميرُ المؤمنينَ إلى سعد أن يسيّر من «القادسيةَ إلى «المدائن» وأن يتركَ النَّساءَ والأطفالَ فى العَتيق ويجعلَ معهم جُنْداً لحمايتهم.

وتقدمَ سعدُ بالجيش حتى تمَّ فتحُ «بابل»، وأصبحتْ معركةُ «المدائن» قريبةً جداً، فقد حَشَد لها الفُرس كلَّ طاقتهم. وتحصَّن الفُرس فى قرية «بَهْرسير» قُرب المدائن على نهر دجلةَ، وحاصَرها سعدُ مدةً حتى تركوها خشيةَ الجوُع. ودخلها سعدُ بجيشه فى جَوْف الليَّل حتى وقفوا على شاطئ النَّهر.

ويُرسلُ سعدُ بصرهُ إلى الجهة الأُخرى من النَّهر فيرى المَدائنَ ويرى في ضوء القمر إيوانَ كسْرى بقُبته البَيْضاء وجُدْرانه العالية وأشجاره البَاسقة. وصاحَ جُنديٌّ عندما لمحَ المدائنَ: اللهُ أكبر.. هذا إيوانُ كِسْرى على مَرمْى البَّصرِ، هذا ما وَعدَ اللهُ ورسوله.

وهُنا ردَّد المسلمونَ بفرحة: الله أكبر.. نَعم هذا ما وعَد به اللهُ ورسوله. وباتَ ستُّون ألفَ جُندى مسلم يُرددونَ فى جَوْف الليل: اللهُ أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.. الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

وكان يَزْدَجرد ومن معهُ فى المدائن يسمعونَ التكبيرَ الذى يُرددهُ الكونُ مع جَيشِ المُسلمين فيزيدهُم رُعْباً وهَلَعاً.

نزل سعدُ بجيشه فى بَهْرسير ثم أرادَ عُبورَ النَّهر إلى المدائن، وكان الفُرس قدهَربوا من المدينة وجَمعوا السُّفن إلى الشاطئ الآخر وضمُّوها إلى البَرِّ الشَّرقى لدجلةَ على بُعد كيلو مترات شمالىً وجَنوبًى المدائن حتى لا يستخدمها أو يَسْتولى عليها المُسلمون. وكان النَّهرُ مُتسعاً عَريضاً، وكان وقتها فيضانٌ خطيرٌ.. فكيفَ العُبورُ؟!

أقامَ سعدُ أياماً فى «بَهْرسير» يفكرُ فى وسيلة لعبور النَّهر ويستشيرُ قُوَّاده. وبينما هو كذلك جاءهُ رجلٌ من المَجوس الذى رأوا حُسن معاملة المُسلمين لهم وقال له:

- مـاذا تَنتظر؟ . . لا يأتى عليكَ ثلاثةُ أيامٍ حتى يَذْهب يزدجـرد امبراطورُ الفُرسْ بكلِ شيءٍ فى المدائنِ، إنه شرع فى نقلِ كُنوزه وأموالَهُ إلى عُمْقِ فارسٍ.

وباتَ سعـدُ مشغولَ الفكْرِ بشأنِ العُبور وراحَ يسألُ اللهَ الهدايةَ والعونَ. وأخذتهُ سنَةٌ من النوم فرأى رؤيا ان خيول المُسلمين تقتحمُ الماءَ وتَعْبرُ النَّهر وهو فى فَيضانٍ عظيمٍ، فعزمَ سَعد على عُبور النَّهرِ.

وفى الَّصباحِ جَمعَ سَعد النَّاسَ وخَطب فيهم وأطْلعهم على الأمْر، وَحَثَّهم على الثَّباتِ والصَّبرِ، وأوْصاهم بإخلاصِ النِّية لله لا طَمَعاً فى الدُنيا.

كان سعدُ بن أبى وقاصٍ دائمَ الحرصِ والحذَرِ، وعرف الجنُود عنه ذلك، إنهُ لا يُقْدمُ على أمرٍ حتى يكونَ قد دَرَسهُ واطمأن إليه. فقالوا جَميعاً: عَزم اللهُ لنا ولكَ على الرُّشدِ فافعلْ.

فَشكَّل سعدُ كتيبةً من سُتمائة فارسٍ على شكْلِ حَرْبة لعبُور النَّهرِ، بقيادة عَاصمِ بن عمرو سُميت بكتيبة الأهوال، ورآهم الفَرسُ على الشاطئِ الآخرِ عائمينَ على خيُولهم فأعدُّوا لهم مثْلها واقتحموا النَّهرَ بخيولهم لُمواجهة المُسلمينَ وسط النَّهرِ دفاعاً عن مَدائنهم، وقَامتْ معركةٌ نهريةٌ، وصاحَ عاصمُ:

أشْرعُوا الرِّماحَ وتَوخُّوا العُيونَ. وراحَ الجُنُودُ يطعنونَ الفُرْسَ حتى استداروا وتراجَعوا إلى شاطئهم، والمُسلمونَ خَلفهم. واستمرَّ القتالُ على الشاطئ حتى صَاحَ فيهم رجَلٌ فارسيٌّ:

- عَلامَ تقتلونَ أنفسكم فوالله ما فى المدائنِ أحدٌ. ففروا وتركوا الشاطئ وهُنا أذنَ سعدٌ إلى بقية الجَيْشِ فى اقتحامِ النَّهر وجَعل لكل فارسٍ قريناً حتى لا يضلُ أحدٌ أو يَغرقَ، وكان سَلمانُ الفارسيُّ قريناً لسعدٍ. وصاح يُذكرهم: «قُولوا نستعينُ بالله، ونتوكلُ عليه، هو حَسْبُنا ونِعْم الوكَيل، لا حَولَ ولا قُوةَ إلا بالله العظيمِ».

وعَبر المُسلمون نهرَ دجلة الذى فَاضتَ ماؤهُ وكَثُر فيه الطَّمى والزَبَد. وكان الجُنود يُغطونَ سطحَ الماء ولا يكْترثونَ، ويتحدثُون كأنهم يَعبرونَ وادياً سَهْلاً. وقَبل أن يَصلوا إلى الشَّاطئ انزلقَ رَجلٌ عن فَرسه ووقعَ فى الماء، ولمحهُ رفيقهُ «القَعْقاعُ بن عمرو» فأخذهُ بيده وجرَّه حتى عَبر النَّهر مع الجيشِ.

وعندما وصلوا إلى الشَّاطئِ صاحَ سعدٌ فى الجنودِ: هل سَقَط منكم رجلٌ فى النَّهرِ؟ قالوا: لا..

فسأل: هل وقَع منكم شَئٌ فى النَّهر؟ قالوا: لا أيها القائُد.

قال سلمانُ الذى كان رفيقاً لسعدٍ: الحمد لله أيها القائدُ، لم يفقد

الجنُودُ شيئاً ولم يَغْرق منهم أحدٌ.

وكان عامرُ بن مالك قد وَقعَ قدحُه فى الماء أثناءَ العُبور، وذهبَ الموجُ بالقدح، ولم يَشأ عامرُ أن يُخبر القَائدَ. لكنه حَزن جداً وقال لرفيقه: والله إنى على يقينٍ من عودته إلىَّ، ما كان الله ليَسْلُبنى قَدحى من بين العَسْكرِ!

وبعد قليلٍ لمحَ رجلٌ من كتيبته الأهْوال الرياحَ والأمواجَ وهى تقذفُ القدحَ إلى الشَّاطئ فتناوله برمحه، فلما رآهُ «عامر» حمد اللهَ بفرحةٍ طاغيةٍ وقال لرفيقه: ألم أقُل لكَ!

***

تقدَّم سعدُ بجيشه فى طُرقات خالية، وبين ديار خاوية تركها أصحابُها خُوفاً وهَلَعاً حتى وصلَ إلى إيوان كسْرى، ذلكَ القَصرْ المهيبُ، وكان به تماثيلٌ نادرةٌ، ولوحاتٌ فاتنةٌ، وذهبٌ كثيرٌ. دخلَ سعدُ الإيوانَ وهو يُرددُ فى دهشة وعبرة: سُبحان الله.. كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كذلك وأورثناها قَوْماً آخرينَ.

واعتلى المؤذن البناءَ وراحَ يُردد الآذانَ: الله أكبر.. الله أكبر،

حيٌّ على الصَّلاة حي على الفلاحِ. واتخذه المُسلمونَ مُصلىً. ثم كَتَب سعدُ إلى «عمر بن الخطاب» يُخبره بفتحِ المدائنِ ويُرسل إليه الغنائم.

***

جعلَ أميرُ المؤمنينَ سَعْداً والياً على الكُوفةِ، وجَعلها مركزاً للفتُوحات ناحيةَ المَشْرق. وأقامَ سعدُ بالكُوفة عدة سنوات بنى فيها مَسْجداً وكان يَلى شئُونَ النَّاس، وشئُونَ الحربِ ويُصلى بالمسلمين.

وبعد مدة ذهبَ نَفرٌ من أهلِ الكُوفه إلى أمير المؤُمنين بالمدينة يشكونَ سَعْداً، فقالوا: - يا أميرَ المؤمنين إنه ُلا يُقْسم بالسَّويةِ، ولا يَعْدلُ في الرَّعيةِ، ولا يَغْزو فى السَّرية، ولا يُحسنُ الصَّلاة.

وأرسلَ أمير المؤمنين «محمد بن مسلمة» إلى الكُوفةِ للتحقيقِ فى الأمْر، وكان يسألُ النَّاسَ سراً عن سعد بن أبى وقاص، فيقولون: والله لا نعلمُ عنه إلا خَيْراً إلا رجلُ يُدعى «أسامةُ بن قَتَادة» أتهَّم سعداً.

وعندما عَلِمَ سعدُ بالأمر حزنَ حُزناً شديداً وبكى وهو يقولُ: اللهمَّ إن كان هذا الرجلُ قالها كاذباً ورياءَ وسُمْعة فاعْمِ بصرِهُ، وأكْثر عِيالهُ، وعَرِّضه لمُضلات الفتن.

وخَرجَ محمد بن مُسلمة من الكُوفةِ بسعدِ بن أبى وقاصٍ ومعهما

أولئك النَّفرِ الذين يتهمونَ سَعْداً. وعندما دخلوا على أميرِ المؤمنين (عُمر) بالمدينة:

قال عُمر: وَيْحَكَ يا سعدُ.. كيف تُصلى؟

قالَ سعدُ: أُطيلُ الركعيتن الأولين، وأُخَفف الأُخريين.

قال عمر: هكذا الظَّنُ بكَ.

وعزلهُ عمرُ عن ولاية الكُوفه، وبقى سعدُ بن أبى وقاص مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وزيراً ومُسْتشاراً له. وسكنَ فى وادى العَقيق قُرب المدينة. وعندما ماتَ عمرَ بن الخطاب كان سعدُ قريباً منه وصلَّى مع إخوانه عليه. وفى خلافة عُثمان بن عفان، ولىَ سعدُ الكوفةَ مدةَ ثم تركها وأعتزل فى بيته.

ومرتْ السَّنواتُ، وعَمى أسامةُ بن قتادة ـ الرجلُ الذى دعا عليه سعد ـ وأصبح لديه عَشْر بنَات، وكان الرجلُ برغم كبرَه هَاتكاً عربيداً، يقفُ على الطرقُات يغازلُ النساء. ويتعجبُ الناسُ: وَيْحك يا رجلُ.. ألا تَستْحى.. عجوز وتغازلُ الجَوارى؟!

فيقولُ الرَّجلُ الذى تدلى حاجباه فوقَ عَينيْه: مفْتونٌ أصابتهُ دعوةُ سعد بن أبى وقاص الرجل المبارك.

ويَشْتدُ المرضُ بسعدٍ بعد أن بلغَ الثمانينَ من عُمره، ويراهُ إبنه فيبكى. فيقولُ سعدُ: ما يُبْكيك يا بُنى؟.. والله إن اللهَ لا يُعذبنى وإننى إن شاء اللهُ من أهل الجنة. يا بَنىَّ ائْتونى بتلكَ الجُبة الصُوف التى قاتلتُ بها المشركيَن يومَ بدرٍ، فما طَويتها كلَّ هذه السنواتِ إلا لهذا اليومِ.

فينهضُ ولده «مُصعب» ويُحضر الجُبةَ التى جَفَّتْ فيها دماءُ أبيه يوم المعركة. فيقولُ سعدُ: كفنونى فيها.

وعندما حضرتْ سعدَ بن أبى وقاصٍ الوفاةُ، جاءَ رجالُ من أهلِ المدينة وجَهزوهُ وكَفَّنوهُ فى جبته التى شَهد فيها غَزوة بَدر. ثم حملوهْ على أكتافهم، وصَلُّوا عليه فى مسجد الرَسول بالمدينةِ، ودُفن بالبقيعِ مع إخوانه صَحابة رسول الله ﷺ •

تمت بحمد الله